المحاضرة السابعة
البناء الفني للقصيدة المعاصرة

يشكّل البناء الفنّي في العمل الأدبي عموما والشعري على وجه الخصوص أساسا تشكيليا وجماليا من أسس العمل، فلا يوجد عمل فنّي دون بناء فنّي، وكل عمل أدبي له خصوصية بنائية معينة ومحدّدة تتلاءم وطبيعة هذا العمل، حيث يعدّ مفهوم البناء الحجر الأساس في هيكلة العمل الفنّي، والبناء الشعري تسهم فيه العناصر المشكّلة للقصيدة.

أولا: في ماهية البناء الفنّي:

أ- التعريف اللغوي:

تحدد المعجمات العربية معنى البناء على انه نقيض الهدم، والبنية بكسر الباء وضمها ما بنيته، واستعملت هذه المفردة للدلالة على انشاء القصور والسفن. أمّا في اللغات الاوربية فإنّ اصل كلمة بنية (structure) إنّما يعود الى اللغة اللاتينية (stuere) ، الذي يعني البناء او الطريقة التي يقام بها مبنى ما، ثم امتد مفهوم الكلمة ليشمل وضع الاجزاء في مبنى ما من وجهة النظر الفنية المعمارية وبما يؤدي إليه من جمال تشكيلي.

ب- التعريف الاصطلاحي

البناء الفني اصطلاحا هو مجموعة العناصر والقوى الّتي تتظافر في النصّ على نحو يتمّ فيه تكامل المعاني الشعرية المتبلورة في حقائق لغوية، فالعالم الّذي تتألف منه القصيدة عالم متجانس تتلاق أفكاره وتتعاقب في حركة مطّردة. وقد عرّف جان كوهن البنية الشعرية بأنّها مجموعة العلاقات المعقودة بكلّ عنصر داخل النسق، ومجموع هذه العلاقات هو ما يسمح بأداء وظائفه اللغوية.

ثانيا: عناصر البناء الفني للقصيدة المعاصرة:

أ- البناء اللغوي:

إنّ الشعر بناء لغوي في المقام الأول، إذ تتجلّى من خلاله عبقرية الشاعر وقدرته على التشكيل واللّعب الفني، حيث إنّ "الّذي يقرأ الأدب ومنه الشعر يدرك بسهولة، أنّه لعب لغوي، سواء أكان لعبا ضروريا تحتمه إمكانات اللغة المحدودة أم كان لعبا اختياريا " يمارسه الشاعر، وهو يعيش تجربة إبداعية تتعالق فيها الرؤى والأفكار والعواطف "فالمشاعر والأحاسيس والأفكار، وكل العناصر الشعورية والذهنية تتحول في الشعر إلى عناصر لغوية، بحيث إذ تقوض البناء اللغوي في الشعر تقوض معه الكيان النفسي والشعوري المتضمن فيه".

ورغم استعانة الشاعر المعاصر بعناصر غير لغوية إلاّ أنّ الشعر ظلّ بامتياز فنّا لغويا "أداته الكلمة، لذا فجوهر الشعريّة وسرها في اللغة ابتداء بالصوت ومرورا بالمفردة وانتهاء بالتركيب وإذا كان الشعر تجربة، فالكلام تجل لتلك التجربة ولعواطف الشاعر، وأحاسيسه في تلك التجربة،، فالشاعر يعي العالم جماليا ويعبر عن هذا الوعي تعبيرا جماليا.». عبر تنويع الأساليب اللغوية التي يرى أنّها

مناسبة لاحتضان تلك التجربة، لأنه ينتج باللغة الشعرية عالما منزاحا عن عالم الواقع، وكونا شعريا من صنع الخيال تجسّده الخصائص الفنية في النصّ.

وتعتمد القصيدة المعاصرة في تأثيث بنيتها اللغوية على مجموعة من العناصر الّتي تتواشج فيما بينها لخلق شعرية القصيدة وتتمثل هذه العناصر في التكثيف اللغوي من خلال خرق القواعد النحوية والتركيبية للبنية اللغوية، وإحداث المفارقات الشعرية، وكذلك من خلال اللعب على الصور البلاغية، ولا سيّما منها المجازية، واستعمال الرموز، بالاتكاء على تقنية التناص وأبعادها الجمالية

ب- البناء الإيقاعي:

على الرغم من أنّ الشاعر العربي المعاصر قد قلّل من الأثر الإيقاعي في الشعر العربي المعاصر، إلاّ أن ذلك لا يعني- بتاتا- ضمور البنية الإيقاعية، حيث ظلّ الجانب الإيقاعي مؤثّرا بشكل كبير على البنية التشكيلية في الشعر العربي المعاصر. فهو " من أهم العناصر التي تغذي العناصر الفنية التي تسهم في تشكيل التجربة الشعرية.

إنّ البناء الإيقاعي في الشعر العربي المعاصر لم يعد مخصوصا بالوزن والقافية أو ما يُسمّى بموسيقى الإطار أو الموسيقى الخارجية فقط، بل أصبح يشغل القصيدة في شموليتها، فهو ينمو داخل البنية النصية، وبين عناصرها كلمة وتركيبا وحتى في صورتها الفنية. إنّه يتشكّل في النسيج اللغوي العام للنص الشعري ويرتبط بالتشكيل الدلالي والإبداعي وعلاقته بنفسية المبدع. وفي هذه النقطة بالذات يحدث التفاوت في جمالية الإيقاع بحيث تتشّكل "الجملة الشعرية" الإيقاعّية بحسب التدفق الشعوري، فتارة تطول وأخرى تقصر. وينتج عن هذا السياق تفاوت في السرعة الإيقاعية أثناء ولادة القصيدة ونمّوها. يبدو ذلك عند الاستماع إليها

وبناء عليه- وكما ذكرنا آنفا- يشكّل البناء الإيقاعي في الشعر المعاصر من خلال المزاوجة بين الإيقاعي الخارجي الّذي يؤثّثه الوزن والقافية والإيقاع الداخلي الّذي ينشأ من خلال "إيقاع الجملة وعلائق الأصوات والمعاني والصور وطاقات الكلام الإيحائية والذيول الّتي تجرّها الإيحاءات وراءها من الأصداء المتلونة".

ت- البناء البصري:

تعد ظاهرة البنية البصرية في الخطاب الشعري العربي المعاصر من أهمّ الظواهر الفنية، حيث تمَّ تجاوز التمركز حول الصوت وثقافة الأذن إلى العناية والتركيز على الحرف وثقافة العين، أي التحول من المعطى السمعي إلى المعطى البصري، الأمر الذي نتج عنه صراع بين الثقافة والكلمة وبلاغتها الشفوية وثقافة الصورة وبلاغتها التشكيلية، وحقيقة الأمر أن هذا الصراع يحيل بشكل غير مباشر إلى ذلك الصراع الخفي بين أنواع من التفكير تتجاذبها أهداف ثقافية واقتصادية.

وفي هذا الإطار حاول الشاعر العربي المعاصر إيجاد فضاء جديد للممارسة النَّصية في محاولة تجسيدها في مدركات حسية تتوافق وحضارة الصورة. ولعل سعيه في تحديث الشعر كانت بداية الثورة على شكل القصيدة والخروج عن نظامها. وقد تجلى ذلك في رفضه للشعرية القديمة (شعرية

الشكل)، وتأسيس شعرية جديدة ومعاصرة (شعرية اللاشكل). ومن هذا المنطلق حاول المزج بين الأشكال التعبيرية بهدف خلق وسيلة فنية تمنح الشعر طاقة جديدة يستطيع من خلالها إنتاج دلالة بصرية تعزز قدرة الكلمة في التعبير عن مختلف القضايا والمواقف في حياة الإنسان.

وبناءً على هذه الاعتبارات تمركزت الممارسة الإبداعية للشعر في دائرة الإنتاج والتلقي، فحلّ النصّ التشكيلي/نص المتلقي (القارئ) محلّ النصّ الإلقائي/نص الشاعر، وقد تجلّت هذه أنماط التشكيل البصري في الشعر العربي المعاصر من خلال ظاهرتين أساسيتين هما:

1- **بنية العتبات**: حيث اهتم الشاعر العربي المعاصر بقضية العتبات اهتماما كبيرا، وذلك من خلال التركيز على العتبات الخارجية المتمثلة في عتبة الغلاف أو ما يسمّى بشكل الخارجي للديوان، وعتبات مدخل النصّ المتمثّلة في عتبة العنوان الّذي يعدّ من أهمّ العتبات النصّية بلا منازع، عتبة التصدير والاقتباس، عتبة المقدمة، وعتبة الهامش.

2- **البنيات الهندسية للنصّ**: لم يكتف الشاعر المعاصر باللعب الشعري على مستوى بنية العتبات، وإنّما راح يمارس طقوسه الشعرية على مستوى النصّ ذاته من خلال استخدام جملة من التقنيات والأساليب الشعرية المعاصرة ومنها تقنية الفراغ والبياض، استخدام بعض الصور الهندسية والرياضية، مع التركيز على جمالية علامات الترقيم ودورها في تأجيج العملية الشعرية.